مصادر التّنَاص
في شعر مختار عيسى

مصطفى فتحي خليفة النحراوي
باحث ماجستير في آداب دمنهور
إشراف / ا.د. أيمن محمد ميدان

العدد ٥٠ يناير ٢٠١٨ م.

المقدمة:

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيد المرسلين، وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد:

يعد النص الأدبي كتلة من نصوص أخرى، تتفاعل وتتداخل في مستويات متغيرة، وأشكال قد تعرف وقد لا تعرف، وهذه النصوص ما يمكن أن نسميه الثقافة السابقة.

والتناص مصطلح نقدي جديد، ظهر لأول مرة على يد باختين وعرف بالحوارية، ليصل الأمر إلى الناقدة جوليا كريستيفا عام ١٩٦٦م، ثم استقاه النقاد العرب من الغرب عن طريق الترجمة، وهو يقوم على استدعاء النصوص السابقة في نص لاحق للتفاعل معها وإعادة انتاجها من جديد، فالقراءة التناصية تعد تعالقا مع نصوص متعددة، وصياغتها في ثوب جديد، وهذا لا يعني أن مفهوم التناص لم يكن موجودًا في تراثنا القديم، فلو نظرنا لوجدنا له إرهاصات في تراثنا النقدي والبلاغي، فهناك بعض المصطلحات القديمة كالتضمين، والسرقة، والاقتباس، والمعارضة، والإعادة، و الاستشهاد، تقترب إلى حد كبير من مصطلح التناص.

من هنا كان التوجه نحو دراسة هذه الظاهرة بوصفها ذات أصول عريقة وقديمة فجاء الاختيار إلى وسم البحث بـ «**مصادرالتَّنَاصّ في شعر مختار عيسى**» تلبية لعدة أسباب منها:

. الكشف عن مكانة الشاعر مختار عيسى بين شعراء عصره، فهو واحد من رواد القصيدة العربية المعاصرة، وعالمه الشعري شديد الثراء.

. الحضور المميز للتناص في القصيدة الحديثة بصورة عامة، وفي قصائد مختار عيسى بصورة خاصة.

. الكشف عن التوظيف التراثي في النصوص الشعرية، وبيان طبيعة القصيدة، وإظهار نهج الشعراء

المحدثين، ومدى قدرتهم على تسخير ثقافتهم في العمل الإبداعي.

الدراسات السابقة:

لم يتطرق أحد من قبل . فيما أعلم . لدراسة ظاهرة التناص في شعر مختار عيسى دراسة مستقلة، رغم كثرة الدراسات التي عرضت لشعر الرجل من قِبل أكاديميين ومبدعين، و نشرت في كتب ودوريات مصرية وعربية كثيرة، ولم ينل حظه من الدرس العلمي سوى رسالة واحدة مسجلة بكلية الآداب . جامعة طنطا، ولم تخرج إلى النور، وهي بعنوان «شعر مختار عيسى دراسة أسلوبية» للباحث طه الجمال.

منهج الدراسة:

آثرت في هذا البحث اعتماد أكثر من منهج؛ مما يتيح أمامي فرصة الانطلاق والنظر للظاهرة من زواياها المتعددة التي تفي بالغاية.

لذا اعتمدت على المنهج الوصفي التحليلي الذي يقوم على استحضار التناص من موضعه في قصائد الشاعر، ومن ثم بيان دوره في أداء المعنى من الناحية البلاغية، والموضوعية.

خطة البحث:

تألف هذا البحث من مقدمة، وأربعة مباحث، وخاتمة.

أما المبحث الأول: فقد عنونته بـ: «التناص الديني».

أما المبحث الثاني: تم عنونته بـ: «التناص الأدبي».

كشف المبحث الثالث: وعنوانه «التّناصّ التاريخي» عن الأشكال التي اعتمدها الشاعر في استدعائه تلك المصادر، فكانت أربعة: التناص الاقتباسي، والتناص الإشاري، والتّناصّ الامتصاصي، وتّناص الشخصيات.

ثم تناولت في المبحث الرابع والأخير: «تّناص الأسطورة ».

وختمت البحث بأهم النتائج التي حاولت فيها تقديم أثر التناص في شعر مختار عيسى، وإيجاز مصادره، تبعها ثبت بالمصادر والمراجع التي استعان بها الباحث في دراسته.

المبحث الأول ـ التناص الديني:

تطورت ظاهرة التناص وأحرزت منزلة رفيعة في الأدب المعاصر، وتنوعت مصادر التناص لدى الشعراء بتعدد ثقافات كل شاعر، وقد حفل شعر مختار عيسى بالمتناصات المتنوعة، التي تدل على سعة ثقافته، واكتساب معارفه من ميادين عدة، وهذا يضفي على نصوصه ثراء، وتمنحه قدرة على التواصل مع تراثنا الديني، والتاريخي، والأدبي.

لقد تعددت أنماط التناص التي أفاد منها الشاعر، ما بين إيحاء بمضمون، أو استدعاء بعض المفردات والتراكيب، أو يستعين بالإشارة إلى قصة أو حدث، أوشخصية.

أولاً ـ الدين:

تأتي أهمية استلهام التراث، وبخاصة التراث الديني، في معرفة الشعراء بقيمة هذا التراث، فالتراث الديني منهل عذب يمهّد الطريق إلى قلب المتلقي لما له من قداسة وحضور في قلوب الناس، ويضاف إلى ذلك إعطاء النص بعدًا جماليًا متميزًا.

والشاعر مختار عيسى من هؤلاء؛ فالقارئ لشعره يظهر له ذلك بوضوح، فهو حريص على توظيف التراث، وبخاصة التراث الديني، فالمعاني المستوحاه سواء من القرآن الكريم أو من غيره من مصادر التراث كثيرة، والأفكار متعددة، ومظاهرالتَّنَاصّ واضحة في الكثير من شعره.

أ- القرآن الكريم:

المتتبع لدواوين مختار عيسى الشعرية يجد إنسانًا مغرمًا بالقرآن الكريم، معجبًا ببيانه وفصاحته، فكان القرآن أهم مصدر من مصادر التَّنَاصّ عنده، فمنح النص سهولًة في وصوله إلى وجدان الناس، وعلى سبيل التمثيل نجده في قصيدة «**كانت سوسنة تتشظى**» يذكر أنّه كان يقلب في دفاتره القديمة، ويتذكر

حالة حب كانت كأنّها حلم جميل، وكأنّه يعيش في الجنة بما فيها من نعيم وأنهار وجنّات:

تذكَّر: كيف افترشَ الحُلْمَ، وغلَّقتِ الجفْنيْنِ،

وراحَا.. يقْتسمانِ الشمسَ،

ويغترفانِ الوَهَجَ،

فتأتلقُ عصافيرٌ في عيْنيهَا،

تتراقصُ أهدابٌ مسْنوناتٌ في عينيهْ

يسْترِقانِ السّمعَ،

فهدى موسيقا الرب

وتلك أهازيجْ بلابلِهِ،

ذي أنهارٌ مِنْ عَسَلٍ تجري مِنْ تحتهما؛

ليس يجفُّ القلبُ،

ولا تذبلُ أشجارُ الحنّاءِ،

ولا يظمأُ طائرُها أبدَا[1].

فالشاعر هنا يتناص مع الآية القرآنية:

[مَّثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِّن مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى} **[سورة محمد:١٥].**

والشاعر يعي تمامًا الآية الكريمة، التي تصف الجنّة بما فيها من نعيم وأنهار، وأحب أن يفيد من

---

[1] **مختار عيسى: الأعمال الشعرية (الجزء الأول)، ط١،ملتقى مرايا، دار الإسلام للطباعة والنشر، المنصورة، مصر، ٢٠١٦م، ص ٦٥، ٦٦.**

بلاغتها في النص فصوّر ثراء سيد المرأة وكأنّها تعيش في الجنة، لكنّها جنّة كاذبة، فقد أصبحت سلعة تباع وتشترى:

كانت تملأُ عيْنيها مِنْ شمسٍ تتدلَّى مِنْ سقْف الغرفَةْ،

وتقاسمُ سيِّدَهَا أريكَتَهُ

تبيعُ حدائِقَها بالسِّعرِ الرسْميّ،

وكان حواريُّونَ. يروحونَ. يجيئونَ. وعَالِيَهُمْ أثوابٌ

مِنْ حَمَأٍ مسنونٍ، فوق رؤوسهم غرابيبُ. وعقبانُ، وفي أيديهمْ أطباقٌ

تتقافزُ فيها بعض دنانير،

ودراهمُ ليستْ معدوداتٍ،

كانت سَوْسَنَةٌ تتشظَّى(١).

يظهر من النّص الحضور الواضح للخطاب القرآني، حيث يتناص مع قوله تعالى في مواطن عديدة:

[عَٰلِيَهُمۡ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضۡرٞ وَإِسۡتَبۡرَقٞۖ] {الإنسان:٢١}.

قوله تعالى:

{بج بخ بم به تج تح تخ تم ته} [سورة الحجر:٢٦].

قوله تعالى:

{ ئه بج بح بخ بم به تج تح تخ} **[سورة فاطر:٢٧].**

قوله تعالى:

{ئج ئح ئخ ئم ئه بج بح بخ بم به} [سورة يوسف:٢٠].

ولكن التَّناصّ هنا تناص بالمخالفة؛ فالثياب ليست من سندس، إنّما من طين منتن، والرؤوس يعلوها السواد، والدراهم ليست معدودات.

---

(١)المصدر السابق: ص ٦٧.

فالقرآن الكريم . إذًا . يعدّ من أهم مصادر التَّنَاصّ عند مختار عيسى، حيث احتوت قصائده على عدد كثير من التَّنَاصّات القرآنية، سواء بالاقتباس، أو الاشارة، أو الامتصاص، فهو النّص المقدس الذي لجأ إليه الشاعر، فأفاض على قصائده بالصياغة الجديدة والمعنى المبتكر.

ب ـ القصص القرآني:

القصص القرآني حاضر عند كثير من شعراء العصر الحديث، سواء أجاءت التجربة الشعرية متوافقة مع النّص القرآني، أو تم التغيير وفق ما يراه الشاعر، ومختار عيسى في استدعائه القصص القرآني يربط بين الماضي والحاضر، فكم من أحوال تشابهت في كثير من حقب التاريخ، ولا تزال المواقف والأحداث تتشابه.

ومن أكثر القصص التي ترددت في شعر مختار عيسى قصة يوسف . عليه السلام .؛ فقد استعان بها في غير قصيدة؛ ليعمّق بها معانيه، ومن ذلك قوله في قصيدة «**من مواقف ابن عيسى المصري ١ – موقف رجفتها**»:

نحن فقيرانِ ، عيالا لله أتيناك ، وقفنا في أعتابكَ ،

هلاّ.. أسقطتَ علينا من نعمائك ظلا ؟ .. أوحيت إلى

الخزنة أن عيالك بالبابِ ، فيوفون الكيلا؟[1].

فالشاعر استّحضر القصة الدينية ، وهي قصة يوسف . عليه السلام . مع إخوته عندما دخلوا عليه، وقد عانوا من الجدب والقحط والفقر.

لذا يناجي مختار عيسى ربّه أن يسقط علينا من نعمائه وكرمه وفضله، كما أكرم يوسف . عليه السلام . إخوته، فأتم لهم الكيل، ولم يبخس منه شيئا، وزادهم حمل بعير فوق كيلهم كرمًا منه وفضلاً.

ويتواصل مع القصة ذاتها في القصيدة نفسها بقوله:

[1] مختار عيسى: الأعمال الشعرية (الجزء الأول)، مصدر سابق، ص ٤٠.

هل تتخففُ من حمل عيالك ، تلقيهم للطرقات،فأنَّى يتلقفنا المارة، أو تحملنا السيارةُ نحو عزيزٍ غيرك أنَّى ؟ أنت أحطت فماذا نملكُ ياذا الملكوت؟ امدُدْ حبلا من فضلك يلقفُنا من قاع الجب، اجتمع علينا الأرضةُ ، والذؤبان، وضلَّ أبونا ، اسودَّت حكمتهُ .. حين استصغى.. لم يتبين ريحًا منا ... فتولَّى![1].

يكشف لنا الشاعر من خلال هذا المقطع استدعاء عدة نصوص قرآنية في سورة يوسف **سورة يوسف:١٠]**. وقوله تعالى: **[سورة يوسف:١٩]**.

وقوله تعالى:

[وَتَوَلَّىٰ عَنۡهُمۡ وَقَالَ يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَٱبۡيَضَّتۡ عَيۡنَاهُ مِنَ ٱلۡحُزۡنِ فَهُوَ كَظِيمٞ ٨٤ {يوسف:٨٤}.

وقوله تعالى: **[سورة يوسف:٩٤]**.

وفي استدعائه لهذه النصوص يبحث عن الفيوضات الإلهية من رب البرية، ويعكس إحساسَه بالألم والضعف أمام القدرة الإلهية طالبًا النجاة والقرب من الله . عزوجل .، والتمسك بحبله، لكنّ السياق هنا يبدو استدعاء المخالفة، فالأيات القرآنية تشير إلى أنّ عيني يعقوب . عليه السلام . ابيضتا من الحزن، كما تشير إلى شعوره بريح يوسف، فيما أشارالسياق الشعري إلى «اسوداد الحكمة» وأيضًا«عدم تبيّن الريح».

لذا كان القرآن الكريم أهم مصادر التَّنَاصّ، وحاضرًا بقوة عند الشاعر مختار عيسى، وكان التّناص القصصي القرآني من أهم الوسائل الفنّية التعبيرية التي لجأ إليها الشاعر؛ للتعبير عن مقاصد تجربته الشعرية.

ج ـ الحديث النبويّ:

يعدّ القرآن الكريم المصدر الأول للتشريع الإسلامي، ويمثّل الحديث الشريف المصدر الثاني من مصادر التشريع الإسلامي بعد القرآن الكريم من حيث بلاغة القول وفصاحة اللفظ.

---

[1] **مختار عيسى: الأعمال الشعرية (الجزء الأول)، مصدر سابق، ص ٤١،٤٢.**

لذا فإنّ الحديث الشريف «كان أحد المشارب التَّنَاصّية التي رفد منها الشعراء العرب في عصورهم المختلفة ، وإن كانت في البداية تظهر ظهورًا مباشرًا هدفه النصح والإرشاد، أو أخذ العبرة، لكنّها بعد حين صارت متداخلة بالنص الشعري تداخل السدى واللحمة، حتى يصعب فصلهما، كما يصعب تبينها، وخاصة عند غياب الإحالة والتنصيص»[١].

ونظرًا لارتباط الشاعر مختار عيسى العميق بالنصوص المقدسة، تشابكت قصائده مع كثير من هذه النصوص، وإن قل حضور الحديث الشريف عن حضور القرآن الكريم، وذلك راجع إلى أنّ المحفوظ من القرآن الكريم في العادة أكثر من المحفوظ من الحديث الشريف، فلا يكون حضور الحديث في ذهن المبدع بالدرجة نفسها لحضور القرآن الكريم.

وثقافة مختار عيسى الدينية تجره إلى التَّنَاصّ مع الحديث النبوي سواءٌ أكان بلفظه أو بمعناه، وسواء أكان التناص مباشرًا أو غير مباشر، فنراه في قصيدة «**من مواقف ابن عيسى المصري (٢) موقف حاورني**» يقول:

أعلنتُ ولائي للجوعْ

مسكونًا بالريبة ألقاني للقابع خلفهْ

(الغارسِ أذنيْهِ بحنْجرتي

الحارسِ سِفْر محاكمة المرَّاق)

فأشارَ لعيْبٍ ـ في نطقي ـ أعجزَنِي أنْ أتلوَ آياتهْ

واستأذن أن يكشف أستارَ الملكوتِ،

ويطلعَ مولاهُ على المكنونِ،

أضافْ:

---

[١] حصة البادي: التناص في الشعر العربي الحديث (البرغوثي نموذجًا)، د.ط، دار كنوز المعرفة، عمان، الأردن، ٢٠٠٨، ص ٤٦.

"لا يُحسنُ غسْل الأعضاءِ،

ولا يتفلُ عن (يسْراهُ) - إذا فاجأهُ الملعونُ -

ويحرصُ أن يتوضأَ مِنْ لَبنِ الصُّبحِ،

ويكشفُ ما استوجَبْتَ بحكمتك الوهَّاجَةِ خِفْيًا لهْ[1].

الشاعر يتحدث عن حالة لا تقبل تغيير مواقفها الثابتة ضد ملك مغتصِب، ويظهر التناص واضحًا مع الحديث النبوي في قول الشاعر **«ولا يتفلُ عن (يسْراهُ)»:**

«عن عُثْمَانَ بْن أَبِي الْعَاصِ رضي الله عنه أنه أَتَى النَّبِيَّ . صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ . فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّ الشَّيْطَانَ قَدْ حَالَ بَيْنِي وَبَيْنَ صَلَاتِي وَقِرَاءَتِي يَلْبِسُهَا عَلَيَّ. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ . صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (ذَاكَ شَيْطَانٌ يُقَالُ لَهُ خَنْزَبٌ ، فَإِذَا أَحْسَسْتَهُ فَتَعَوَّذْ بِاللَّهِ مِنْهُ وَاتْفِلْ عَلَى يَسَارِكَ ثَلَاثًا (قَالَ: فَفَعَلْتُ ذَلِكَ فَأَذْهَبَهُ اللَّهُ عَنِّي»[2] .

وهنا يتبين بوضوح هذا التماهي بين الألفاظ الواردة في القصيدة، والألفاظ الواردة في الحديث النبوي. **د . التصوُّف:**

اتسع مفهوم التصوُّف، وتعدّدت تعاريفه، فقد قيل: «التصوُّف: الوقوف مع الآداب الشرعية ظاهرًا، فيرى حكمها من الظاهر في الباطن، وباطنًا، فيرى حكمها من الباطن في الظاهر، فيحصل للمتأدب بالحكمين كمال.

والشعر والتصوف متقاربان، فكلٌ منهما يبحث في ما وراء الواقع، فالصوفي يهرب دائمًا إلى

---

[1]مختار عيسى: الأعمال الشعرية (الجزء الأول)، مصدر سابق، ص ٥٠.

[2]مسلم بن الحجاج : صحيح مسلم، المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، كتاب السلام، باب التعوذ من شيطان الوسوسة في الصلاة، حديث رقم ٢٢٠٣، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان،١٩٥٥م، ١٧٢٨/٤.

الغيب، والشاعر يميل دائمًا إلى الخيال، التجربتان الشعرية والصوفية «تنبعان من منبع واحد، وتلتقيان عند الغاية نفسها، وهي العودة بالكون إلى صفاته وانسجامه بعد أن يخوض غمار التجربة»[١].

والشاعر مختار عيسى صاحب تجربة متميزة وفريدة، نظر إلى التصوف كحالة تسامٍ على الهموم والآلام، في أسلوب يمتلك القلوب ويأسر النفوس، ففي قصيدة «**لاتكشف عن شجر السر الحاء**» يقول:

حدثني شيخي:

" كنا نتجول في أروقة السرِّ ،

شعاعينِ،

وننتظر طلوع إمام الدارين ،

الصاحبِ، وابن الصاحبِ" عطَّاء"،

وكانت صاحبتي في الدار،

تمازجُ بين الماء ، وبين رحيق بلاغتيَ،

وطفلاي على التنُّور يلوكان فطيرة أشعاري ،

وأنا المفتتن المرَّادُ

الحافظُ ماسطَرَ الأجدادُ

على سعف الأرواح،

وخبَّأ لي خازن بيت الحكمةِ ،

من ياقوت الشهوةِ...[٢].

---

(١) صلاح عبد الصبور: حياتي في الشعر، د.ط، دار إقرأ، بيروت، لبنان، ١٩٨٣ م، ص ١٦٥.

(٢) مختار عيسى: الأعمال الشعرية (الجزء الثاني)، ص ١٣، ١٤.

يظهر من أول وهلة أنّ عنوان القصيدة نصيحة من الشيخ إلى المريد / الوالد لولده، بعدم البحث عن الأسرار العظيمة، واتخاذ الشيخ واجب عند الصوفية، قال الغزالي . رحمه الله .: «يحتاج المريد إلى شيخ وأستاذ يقتدي به لا محالة، ليهديه إلى سواء السبيل، فإن سبيل الدين غامض! وسبل الشيطان كثيرة ظاهرة، فمن لم يكن له شيخ يهديه، قاده الشيطان إلى طرقه لا محالة ... فمعتصَم المريد شيخه، فليتمسك به»[١].

ومن الأسرار العظيمة ما يتعلق بالحروف قال القرطبي . رحمه الله .:

«هي سرّ الله في القرآن، ولله في كل كتاب من كتبه سرّ فهي من المتشابه الذي انفرد الله تعالى بعلمه،

ولا يجب أن يُتكلم فيها, ولكن نؤمن بها ونقرؤها كما جاءت»[٢].

ويشير الشاعر إلى سر حرف الحاء في إشارة إلى الحواميم / الحقيقة / الحال، وكل كلمة لها معنى عند الصوفية، فالحواميم: هي سور القرآن التي تبدأ بقوله تعالى (حم) قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ . رضي الله عنه .:

«حم» اسْمُ اللَّهِ الْأَعْظَمِ»[٣].

والحقيقة: مرتبطة بالشريعة «فالشريعة أن تعبده، والحقيقة أن تشهده، فالشريعة قيام بما أمر، والحقيقة شهود بما قضى وقدّر، وأخفى وظهر»[٤].

والحال: «معنى يرد عَلَى القلب من غَيْر تعمد مِنْهُم ولا اجتلاب ولا اكتساب لَهُمْ من طرب أَوْ حزن أَوْ بسط أَوْ قبض أَوْ شوق أَوِ انزعاج أَوْ هيبة

---

(١)أبوحامد الغزالي: إحياء علوم الدين، ج ١، د.ط، دار الأرقم بن أبي الأرقم، بيروت، لبنان، ١٩٩٨م، ص ٩١.

(٢)أبو عبد الله شمس الدين القرطبي: الجامع لأحكام القرآن، ج١، ط٢ دار الكتب المصرية، القاهرة، مصر، ١٩٦٤م، ص ١٥٤.

(٣)المصدر السابق: ج ١٥، ص ٢٨٩.

(٤)محمد المنشاوي: فلسفة التصوف الإسلامي، ط١، مكتبة مدبولي، القاهرة، مصر، ٢٠٠٨م، ص ١٨٥.

أَوِ احتياج، فالأحوال مواهب والمقامات مكاسب، ...وصاحب الحال مترق عَن حاله»[١].

«وقول الشاعر «حدثني شيخي» هذه الجملة المفتاح التي اتخذها الشاعر تكئة للتركيبة التي يشكلها عن طريق الفلاش باك؛ ولهذا فهو يضع هذا الاسترجاع بين قوسين، وكأنه كلام الشيخ، وليس كلام الشاعر، لكي يبدأ في بث السيرة / لا القصة، أي طريقة قص الشعر. التي تتنامى وتتفاعل لتشكل الصورة الكلية المكونة لرؤية الشاعر للعالم وللقصيدة، العالم المادي المحسوس، والقصيدة بروحانيتها الفائقة، فنجد التجوال يحدث في أروقة السر، والمرأة التي هي في الدار. تمازج بين الماء وبين رحيق البلاغة، والطفلان على التنور يلوكان فطيرة الأشعار»[٢].

تجربة مختار عيسى الصوفية تكشفها كثير من النصوص، وما النماذج التي أشرنا إليها إلا غيض من فيض.

---

[١]عبد الكريم القشيري: الرسالة القشيرية، تحقيق عبد الحليم محمود، ومحمود بن الشريف، د.ط، دار المعارف، القاهرة، ٢٠١٠م، ص١٥٤.

[٢]محمد دسوقي: فتنة السيرة ونداء الشعر، دراسة قدمت في ندوة باتحاد كتاب مصر، في مايو ٢٠١٧م.

المبحث الثاني ـ التناص الأدبي:

والتَّنَاصّ الأدبي هو:

«تداخل نصوص أدبية مختارة قديمة وحديثة شعرًا أو نثرًا... بحيث تكون منسجمة وموظفة ودالة قدرالإمكان على الفكرة التي يطرحها الشاعر، أو الحالة التي يجسدها ويقدّمها في شعره»[١].

ومن النماذج الشعرية على التناص الأدبي لدى مختار عيسى قوله في قصيدة «**صبٌّ غوى**»:

كنت ارتكنتَ إلى الجدار الهش،

وأبحت للأسماء أن تنحلَّ عن جسد البلاغةْ،

فذبحتَ طفلا

ـ كنتَ ترقبُ أن يواريَك التراب ـ

ماذا تريد ؟

تمشي على البرق الخؤون ،

وتهشُّ بالشعر الكلاب ؟!

حمقاءُ سورتُك التي أفنيتَ عمرك..

في حواشيها !

" ما غادر الشعراء من متردّمٍ "

وظللت تشرب من قوافيها ..

ذُلَّ الذي قرأ الكتاب ،

ودال تاليها !

حمقاءُ ، كيف أردتَها لغةً ..

---

[١]أحمد الزغبي: التناص نظريًا وتطبيقيًا، مصدر سابق، ص ٥٠.

وبُكْمٌ صحْب حاديها ؟[1].

هذا المقطع يكشف عن المخزون الشعري لمختار عيسى، ويعلن عن تداخل نصي واضح مع نص عنترة بن شدّاد، فمن يقرأ هذا المقطع يتبادر إلى ذهنه قول عنترة:

هَلْ غَادَرَ الشُّعَرَاءُ منْ مُتَرَدَّمِ أم هَلْ عَرَفْتَ الدَّارَ بعدَ تَوَهُّمِ[2].

فالشاعر يحكي عن حالة عشق، لكنّها حالة من نوع خاص هي عشق اللغة، وكيف جحد متلقي الرسالة هذه العلاقة؟ وهو لم يقرأ، ولم يعرف!

ومع أن الشعراء لم يتركوا شيئًا يصاغ فيه شعر إلا صاغوه، إلا أنّه ما زال يشرب من قوافي اللغة وينهل من معانيها.

وهكذا تناصت أبيات مختار عيسى الشعرية مع التراث الشعري القديم من جهة، والشعر الحديث من جهة أخرى، واستطاع أن يوظف نصوصًا أخرى في قصائده تخطف الأبصار، وتحمل بين طياتها دلالات رائعة.

المبحث الثالث ـ التناص التاريخي:

محال أن ينفصل الإنسان عن التاريخ مهما حاول، فالتاريخ جزء أصيل من ثقافته، وكلٌ يأخذ من ثقافته التاريخية ما يناسب المقام، وهذا يشير إلى أهمية التاريخ، ومن ثم يبرز التّناصّات التاريخية في العمل الأدبي.

فـ «التّناص ليس غير إدراج التراث في النص، وإدراج النص في التراث، فالنّص الفني الذي يستعيد التاريخ ليس غير رجع لنصوص تراثية أخرى، يتجاوب معها ويحاورها، ويعيد استنطاقها »[3].

والتّناصّ التاريخي أحد نماذج التّناص التي تثري النّص وتضفي عليه شيئًا من الجلالة والعراقة وهو:

---

(1)مختار عيسى: الأعمال الشعرية (الجزء الاول)، ص ١٢٢،١٢٣.
(2)عنترة بن شداد: ديوانه، ط٣، دار صعب، بيروت، لبنان، ١٩٨٠م، ص ١٢.
(3)مصطفى عبد الغني: قضايا الرواية العربية في نهاية القرن العشرين، ط١، الدارالمصرية اللبنانية، القاهرة، مصر، ١٩٩٩م، ص٩٧.

«تداخل نصوص تاريخية مختارة ومنتقاة مع النص الأصلي للقصيدة، وتبدومناسبة ومنسجمة مع التجربة الإبداعية للشاعر، وتكسب العمل الأدبي ثراًء وارتفاعًا»[١].

والتَّنَاصُّ التاريخي «يربط الماضي بالحاضر والمستقبل، ويعقد المفارقات بين الأحداث التاريخية في محطات زمنية مختلفة، ويسلط الضوء على الغاية من وراء الأحداث ومصائر الشعوب »[٢]. وكان للثقافة التاريخية أثر ملموس في شعره، فظهر في قصائده كثير من التَّنَاصات مع الأحداث التاريخية حيث يقول في قصيدة «**وكشفنا عنك غطاءك**»:

كلُّ البلاد ارتضتكَ ،

وأعطتك مفتاحها ،

وادّعتْك الأميرَ ،

وعلّقن أشعارك المذْهباتِ ..

على ساريات الخلافةِ ،

(أنت المعبأ باللؤلؤاتِ ،

المسافرُ في زقزقات الصباحِ ...

إلى خضرة الوقتِ ،

أنت النبيُّ المهاجرُ ، للبلدة الآمنةْ !)[٣].

استعان الشاعر بحادث الهجرة النبوية من مكة إلى المدينة، وكيف استقبله الأنصار فلقد أحس أهل المدينة بالفضل الذي حباهم الله به، وبالشرف الذي اختصهم به أيضًا، فقد صارت بلدتهم موطنًا لإيواء رسول الله . صلى الله

---

(١)أحمد الزغبي: التناص نظريًا وتطبيقيًا، مصدر سابق، بتصرف، ص ٢٩.
(٢)آلاء نعيم على القطراوي: شعر أحمد بخيت دراسة تحليلية، رسالة أعدت لنيل شهادة الماجستير في قسم اللغة العربية، الجامعة الإسلامية، كلية الآداب، غزة، فلسطين، ٢٠١٥م، ص ١٦٥.
(٣)مختار عيسى: الأعمال الشعرية (الجزء الأول)، ص ٢٣.

عليه وسلم . وصحابته المهاجرين، ثم لنصرة الإسلام، فاتخذ من هذا الحدث رمزًا موحيًا، ووسيلة لتصويرحال فارس قبل الانهيار، فهوالأمير والجميع في انتظارهِ، لكن هذه الحالة لم تدم طويلاً، فقد تغيّرت وتبدّلت من الفرح إلى الحزن، من النّصر إلى الهزيمة والانهيار، من العزّ إلى الذّل والانكسار، وهنا يستدعي حدثًا تاريخيًا إسلاميًا آخر، وهو حادث الطائف:

هو الليلُ

يزحف نحوك ...

غرابيبَ سود

وجيشا من النملِ ،

والدودِ ،

والأسئلهْ .

هي الريحُ تكشف عنك الغطاءَ

وتطفئ نارا (تشهيتها واشتهتكَ)،

وتلقيك للأرجل الداهساتْ

سجينٌ لوقت تخطاك

عمرٍ ، يشاغل عنك النساءَ ،

ورهنٌ .. لأن تدّعيك القرى....

عمدةً . من جديدْ ! .

ومذ فارقتك النبوةُ،

مذ أنكرتك القبائلْ ،

وطاردك الصبية العابثون

تسنّمت ظهر البعير الحرونْ ،

وأسلمت أبناءك القاصرينَ ..

إلى سيدٍ من ورق

وصرت الوحيد .. الوحيدْ ![1].

فيستغل مختار عيسى الحادثة التاريخية ليبني عليها هذا الجزء من القصيدة في تعبير عن حالة الهزيمة والانكسار لهذا الشخص، ولعل في موقف النبي . صلى الله عليه وسلم . مع أهل الطائف ما يدل على هذا المعنى، وتبدو هذه الحالة من خلال تصديره المقطع بقوله «هو الليل»، فهي الكلمة التي تشبه كلمة السر والتي من خلالها يستطيع المتلقي الدخول إلى مغاليق النص، والعبور إلى الدلالة الجوهرية للنص، فشتان شتان بين استقبال أهل المدينة للنبي . صلى الله عليه وسلم .، واستقبال أهل الطائف، فأهل الطائف عندما جلس . صلّى الله عليه وسلّم . إليهم ودعاهم إلى الله . عز وجل . قَالَ لَهُ أَحَدُهُمْ:

«هُوَ يَمْرُطُ ثِيَابَ الْكَعْبَةِ إِنْ كَانَ اللَّهُ أَرْسَلَكَ، وَقَالَ الْآخَرُ: أَمَا وَجَدَ اللَّهُ أَحَدًا يُرْسِلُهُ غَيْرَكَ! وَقَالَ الثَّالِثُ: وَاَللَّهِ لَا أُكَلِّمُكَ أَبَدًا. لَئِنْ كُنْتَ رَسُولًا مِنْ اللَّهِ كَمَا تَقُولُ، لَأَنْتَ أَعْظَمُ خَطَرًا مِنْ أَنْ أَرُدَّ عَلَيْكَ الْكَلَامَ، وَلَئِنْ كُنْتَ تَكْذِبُ عَلَى اللَّهِ، مَا يَنْبَغِي لِي أَنْ أُكَلِّمَكَ. فَقَامَ رَسُولُ اللَّهِ . صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ . مِنْ عِنْدِهِمْ وَقَدْ يئس من خبر ثَقِيفٍ... وَأَغْرَوْا بِهِ سُفَهَاءَهُمْ وَعَبِيدَهُمْ، يَسُبُّونَهُ وَيَصِيحُونَ بِهِ، حَتَّى اجْتَمَعَ عَلَيْهِ النَّاسُ» [2].

فيمكن القول بأنّ«حادثة الطائف» باعتبارها تناصًا تاريخيًا أمدت القصيدة بطاقة إبداعية، وكانت سببًا في إثراء القصيدة وشحنها بطاقة إبداعية.

التناص الأسطوري:

---

[1]مختار عيسى: الأعمال الشعرية (الجزء الأول)، ص ٢٤، ٢٥.

[2]عبد الملك بن هشام بن أيوب الحميري المعافري: السيرة النبوية، ج ١، تحقيق: مصطفى السقا، وإبراهيم الأبياري، وعبد الحفيظ الشلبي، ط٢، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، القاهرة، مصر، ١٩٥٥م، ص ٤٢٠.

الشاعر مختار عيسى أحد هؤلاء الشعراء الذين وظفوا الأسطورة بأنواعها، في إبداعاتهم الأدبية، وفق قناعاتهم، ومتطلبات مجتمعاتهم، لما فيها من طاقات تعبيرية، لا يمكن التعبير عنها باللغة المباشرة، لكن تناص الشاعر مع الأسطورة كان في قصائد معدودة، منها، «**بكائيات الدانتيل الأزرق على شرفة المساء**» فيقول فيها:

للفضاء الذي

ـ كما علَّمتني جدَّتي الزرقاء

(في الحواديت) ـ

له لون عنقاء ساخنة ،

وجناحا رخ عظيم ...

سلم الشاعر ـ الكحليُّ ـ

أسطرا بُنيَّة ،

تجاهدُ الدكنة

واستسلم

ـ غير عابئ بالخرافة ،

وأناشيد الأحبار المنفيين ـ

لنوبة من البكاء الجامح؛

كي لا يفجأه المغنون

متلبساً .. بالأغنية المرحة ![1].

وظّف الشاعر في هذه الأسطر الشعرية صورة أسطورية تتناص مع «طائر العنقاء»، والعنقاء طائر أسطوري نسجت حول قوته أساطير كثيرة، منها «إنّه يحرق نفسه في عشّه، ومن رماده

[1] مختار عيسى: الأعمال الشعرية (الجزء الأول)، ص ٢٨٠، ٢٨١.

يخرج ولده، وقد أصبحت العنقاء رمزًا للبعث»[1] .

وكأن الشاعر يؤكد أن التحديات والمواجهات التي يتعرض لها، لا تزيده إلا قوة، وثباتًا، فتضحياته هي التي تمنحه الحياة، واستند إلى أسطورة «العنقاء» التي ترمز إلى التجدد المستمر، ليعبر عن الأمل في غد أفضل، و جاءت الأسطورة منسجمة مع النص الشعري.

ويدخل مختار عيسى في تناص يحيلنا إلى أسطورة «إبليس ومثلث برمودا» في قصيدة «**نقوش على سرة الأرض**» بقوله:

الأرضُ :

عقوبةٌ

يا إلهي !

لأهبط مع جدي،

فتنتشي المرأةُ فِي حوض السباحة ،

ويرقص "إبليس" مغتبطا ..

فِي "مثلث برمودا "!

على الرغم ..

من معارض الكتاب الدولية

على الرغم من (عربسات)![2].

يريد الشاعر أن يلعب بكل الأنماط الشعرية معًا، فهو يكتب أبياتا واقعية فيها شحونة الممارسة الفعلية للحياة، كما يمكن أن يكتب أبياتًا أخرى يلجأ فيها إلى الأسلوب الرمزي من خلال توظيف الأسطورة، حيث صوّر الأرض كأنّها

---

[1]سهيل عثمان، وعبد الرازق الأصفر: معجم الأساطير اليونانية والرومانية، منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دمشق، ١٩٨٢م، ص ٣٣٣.

[2]مختار عيسى: الأعمال الشعرية (الجزء الأول)، ص ٥١٣.

عقوبة، وصوّر ابليس يرقص فرحًا على عرشه في مثلث برمودا، وإن كان الثابت أن عرش إبليس على الماء:

عَنْ جَابِرٍ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ. صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ .:

«إِنَّ إِبْلِيسَ يَضَعُ عَرْشَهُ عَلَى الْمَاءِ، ثُمَّ يَبْعَثُ سَرَايَاهُ، فَأَدْنَاهُمْ مِنْهُ مَنْزِلَةً أَعْظَمُهُمْ فِتْنَةً»[1].

[1] مسلم بن الحجاج : صحيح مسلم، كتاب صفة القيامة الجنة والنار، مصدر سابق، بَابُ تَحْرِيشِ الشَّيْطَانِ وَبَعْثِهِ سَرَايَاهُ لِفِتْنَةِ النَّاسِ وَأَنَّ مَعَ كُلِّ إِنْسَانٍ قَرِينًا، حديث رقم ٢٨١٣، ٢١٦٦/٤.

الخاتمة:

كان هذا البحث محاولة جادة لدراسة مصادر التّناص في شعر مختار عيسى وجاء البحث بمجموعة من النتائج يمكن إجمالها فيما يلي:

. اللغة لم تتخل عن رصانتها ولا عن قدرتها على تقديم زخرفتها الجمالية البديعة لدى مختار عيسى، فهو صاحب لغة غنيّة بالمفردات اللغوية، يستخدم ما في اللغة من طاقات، ويعمل على تفجيرها.

. حرص الشاعر مختار عيسى على توظيف التراث، وبخاصة التراث الديني، فالمعاني المستوحاه سواء من القرآن الكريم أو من غيره من مصادر التراث كثيرة، والأفكار متعددة، ومظاهرالتَّناصّ واضحة في الكثير من شعره، وهذا يضفي على النصوص ثراءً ورونقًا وبهاء.

. القصص القرآني حاضر في شعر مختار عيسى، سواء أجاءت التجربة الشعرية متوافقة مع النّص القرآني أو تم التغيير وفق ما يراه الشاعر، والشاعرفي استدعائه القصص القرآني يربط بين الماضي

والحاضر، ومن أكثر القصص التي ترددت في شعر مختار عيسى قصة يوسف . عليه السلام .؛ فقد استعان بها في غير قصيدة؛ ليعمّق بها معانيه.

. كان الحديث الشريف كان أحد المشارب التَّنَاصّية التي رفد منها الشاعر لأنّه يأتي في المقام الثاني بعد القرآن الكريم من حيث المكانة، والتأثير على القلوب.

. رحل الشاعر إلى عالم التصوف حيث الحب الإلهي والصفاء الروحي، وقد لاذ بالتصوف فرارًا من واقع مؤلم وراح يبحث عن أحلام الناس وآمالهم في رؤية شعرية مذهلة.

. في نطاق التّناص الأدبي تعددت وتنوعت التّناصات الشعرية بين التراث الشعري القديم، وبين الشعر الحديث، وهذا يدل على سعة اطلاع الشاعر على نتاج الآخرين، ولا أحد يستطيع أن ينتج نصه دون التعالق مع غيره.

. المستقصي لشعر مختار عيسى يجد ظاهرة التناص بأشكالها المختلفة ومصادرها المتعددة شائعة في شعر التفعيلة وفي شعره العمودي، بينما يندر وجودها في قصيدة النثر.

. نهل الشاعر من معين التاريخ في قصائده، وبخاصة التاريخ العربي الإسلامي.

المصادر والمراجع:

(١)آلاء نعيم على القطراوي: شعر أحمد بخيت دراسة تحليلية، رسالة أعدت لنيل شهادة الماجستيرفي قسم اللغة العربية، الجامعة الإسلامية، كلية الآداب، غزة، فلسطين،٢٠١٥م.

(٢) أحمد الزغبي: التناص نظريًا وتطبيقيًا، د.ط، مؤسسة عمون للنشر والتوزيع، الأردن، ٢٠٠٠م.

(٣) أبوحامد الغزالي: إحياء علوم الدين، ج ١، د.ط، دار الأرقم بن أبي الأرقم، بيروت، لبنان، ١٩٩٨م.

(٤) حصة البادي: التناص في الشعر العربي الحديث (البرغوثي نموذجًا)، د.ط، دار كنوز المعرفة، عمان، الأردن، ٢٠٠٨.

(٥)عبد الكريم القشيري: الرسالة القشيرية، تحقيق عبد الحليم محمود، ومحمود بن الشريف، د.ط، دار المعارف، القاهرة، ٢٠١٠م.

(٦) سهيل عثمان، وعبد الرازق الأصفر: معجم الأساطير اليونانية والرومانية، منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دمشق، ١٩٨٢م.

(٧) صلاح عبد الصبور: حياتي في الشعر، د.ط، دار إقرأ، بيروت، لبنان، ١٩٨٣ م.

(٨)عبد الملك بن هشام بن أيوب الحميري المعافري: السيرة النبوية، ج ١، تحقيق: مصطفى السقا، وإبراهيم الأبياري، وعبد الحفيظ الشلبي، ط٢، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، القاهرة، مصر، ١٩٥٥م.

(٩) عنترة بن شداد: ديوانه، ط٣، دار صعب، بيروت، لبنان، ١٩٨٠م.

(١٠) القرطبي، (محمد بن أحمد الأنصاري): الجامع لأحكام القرآن، تفسير القرطبي، تحقيق: أحمد البردوني، وإبراهيم أطفيش، ج٢٠، ط٢، دار الكتب المصرية، القاهرة، مصر، ١٩٦٤م.

(١١) محمد المنشاوي: فلسفة التصوف الإسلامي، ط١، مكتبة مدبولي، القاهرة، مصر، ٢٠٠٨م.

(١٢) مختار عيسى: الأعمال الشعرية (الجزء الأول)، ط١،ملتقى مرايا، دار الإسلام للطباعة والنشر، المنصورة، مصر، ٢٠١٦م.

(١٣) ــ: الأعمال الشعرية (الجزء الثاني)، ط١، ملتقى مرايا، دار الإسلام للطباعة والنشر، المنصورة، مصر، ٢٠١٦م.

(١٤) مسلم بن الحجاج : المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، صحيح مسلم، كتاب الإيمان، ج١، د.ط، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان،١٩٥٥م.

(١٥) مصطفى عبد الغني: قضايا الرواية العربية في نهاية القرن العشرين، ط١، الدارالمصرية اللبنانية، القاهرة، مصر، ١٩٩٩م.

(١٦) محمد دسوقي: فتنة السيرة ونداء الشعر، دراسة قدمت في ندوة باتحاد كتاب مصر في مايو ٢٠١٧م.